الفصل الثالث

الأدب اليوناني القديم

الملاحم:

أقدم الآثار الأدبية المعروفة في بلاد اليونان هي مجموعة القصائد أو الملاحم التي نظمها هوميروس، بيد أنه من المرجح أن تكون بذور الشعر الملحمي الأصلية قد جاءت من الأناشيد والتراتيل الدينية التي تتغنى بأمجاد الآلهة والتي كانت تلقى أو تنشد في الأعياد والمهرجانات العامة. ولقد نظم هذه الأشعار شعراء مجهولون، أو بالأحرى اسطوريون، إذ لا نعرف عنهم سوى أسماءهم مثل:(اورينوس وموسايوس وايوملبوس). والجدير بالذكر أن أول المسابقات الشعرية التي كانت تقام في بلاد الإغريق كانت تقوم على الأشعار الدينية، وتركزت في (دلفي) – مركز العبادة القديم – ومن ثم كان الشعر الملحمي في بداية عهده من عمل وإلقاء مُغني المعبد أو منشده الذي كان يعزف أثناء الإنشاد على القيثارة.

المهم أنه كانت هناك أشعار تُنشد قبل الحرب الطروادية، وهي أشعار تركت بصماتها على الملاحم التي نُظمت لتروي أحداث هذه الحرب[1].

تشير كلمة ((ملحمة)) (Epic) إلى القصيدة القصصية الطويلة التي تحكي أعمال البطولة التي تصدر في العادة عن بطل رئيسي واحد، والتي كثيراً ما يكون لها مغزى قومي واضح. وتشير كلمة ((ملحمى)) إلى كل ما هو بطولي يتجاوز قدرات البشر، ويجمع بين الروعة والعظمة والجلال.

ولعل أول ما يميز الملحمة هو ذلك التنوع الهائل والتشعب في الموضوعات التي تعرض لها . بحيث نجد الأحداث والوقائع الحقيقية جنباً إلى جنب مع الأسطورة والحكاية الخرافية والقصص والروايات المتعلقة بأعمال لبطولة والتي لا تخلو من

[1] – د . أحمد عثمان: الشعر الإغريقي تراثاً انسانياً وعالمياً، عالم المعرفة، الكويت، 1984 ص 16

المبالغة والتهويل، وذلك فضلاً عن بعض القصص ذات الطابع الإشارة إلى بعض العادات والتقاليد، بل بعض الآراء والخطرات الفلسفية والأخلاقية وغير ذلك.

و في كل ملحمة من الملاحم الكبرى حدث ملحمي رئيسي بسيط يمكن تلخيصه في عبارة واحدة، ولكن الشاعر ينطلق إلى مجالات أخرى واسعة ومتنوعة مما يضفي على ذلك الحدث كثيراً من الغنى والثراء والعمق. فالحدث الملحمي في إلياذة هوميروس مثلاً هو ((غضب اخيلليوس)) لمقتل صديقه باتروكلوس في الحرب الطروادية ورغبته في الانتقام له. والحدث الملحمي في الأوديسيا هو ((الرجل)) أوديسيوس ورحلته الشاقة لاسترداد زوجته. ولذا فإن أول كلمة في الإلياذة هي ((الغضب)) إذ يبدأ هوميروس ملحمته بالاشارة إلى هذا الغضب بقوله في البيت الأول: ((غنّي يا ربة الشعر غضبة آخيليوس بن بيلوس المدمرة))، كما أن أول كلمة في الأوديسيا هي ((الرجل)) حيث يقول هوميروس في البيت الأول منها: ((غنّي يا ربة الشعر عن الرجل الرحالة الذي هام يجوب في الآفاق بعد دمَّرَ مدينة طروادة المقدسة)).

ويمكن القول بوجه عام إن ما يميز القصيدة الملحمية في هذا الصدد هو ذلك الاندفاع أو التدفق الهائل في سرد القصة، بحيث يسيطر ذلك التدفق والذي يدل على وجود عقل بارع خلاق يتصور العمل كوحدة كلية متكاملة، ويوجه الأجزاء المختلفة بطريقة دقيقة محكمة ويضفي على ذلك كله مسحة من الجمال والروعة بما يستخدمه من تشبيهات ومحسنات لفظية وأوصاف ونعوت تساعد على توضيح الفكرة وتعميقها.

ومن خصائص الملحمة أيضاً المزج بين القوى البشرية والقوى الإعجازية أو الفائقة للطبيعة. ويتمثل ذلك من ناحية في شخصية البطل ذاته الذي كثيراً ما يكون قد جاء نتيجة تزاوج أم من البشر وأب من الأرباب أو الكائنات غير البشرية، أي أنه يدخل في تكوين البطل عنصر غير بشري. والأمثلة على ذلك كثيرة، من ذلك مثلاً جلجامش بطل الملحمة السومرية الشهيرة، انحدر من أصل إلهي أو هو يجمع بين العنصرين البشري (حوالي الثلث) والإلهي (حوالي الثلثين) ولذا كان يتمتع بكثير من القدرات الخارقة والقوى الإعجازية.

كما يتمثل من الناحية الأخرى في تدخل هذه القوى الإعجازية في سير الأحداث وتوجيهها والمشاركة فيها في بعض الأحيان كما هو الحال في الملاحم

الكلاسيكية ففي الإلياذة نجد الآلهة والربات تنقسم فيما بينها بالنسبة للحرب الطروادية، ويناصر كل منها أحد الفريقين المتحاربين وتتصرف كما لو كانت من البشر.

وبالمثل كانت الإلهة أو الربة (أثينا) تتدخل بكثرة وبشكل سافر في كثير من المواقف التي تسجلها الأوديسيا.

لقد لاحظ أكثر من باحث أوجه الشبه بين ملحمة الإلياذة اليونانية وملحمة جلجامش السومرية الأصل. ومثال ذلك الزيارة التي قام بها (اوديسيوس) للعالم الآخر، فهذا المشهد مستعار من زيارة (انكيدو) صديق جلجامش لعالم الموتى. وتذكرنا فكرة القيام بحملة حربية للظفر بعروس جميلة أو استعادتها الواردة في الإلياذة بنفس الفكرة الواردة في ملحمة (كرت) الكنعانية – الفينيقية. كما أن بعض الشخصيات والمواقف والتعابير في الأدب الأوجارتي تنم عن تأثر الأساطير اليونانية بها. ونلتقي بفكرة البطل الذي تحطمت سفنه وغرق كل من معه إلا هو، وهي قصة اوديسيوس (في الأوديسيا اليونانية)، نلتقي بها قبل ذلك في القصة المصرية المسماة بقصة (الملاح الذي نجا من الغرق) التي ترجع إلى ما قبل 2000 ق. م. ولا يمكن أن تكون كل هذه المتشابهات وليدة الصدفة وحدها. لقد تأثرت القصص والأساطير اليونانية تأثراً ملحوظاً بقصص واساطير الشرق القديم واقتبست م أدب السومريين والبابليين والفينيقيين والحيثيين[1].

ومهما اختلفت الآراء حول شخصية مؤلف هاتين الملحمتين ومولده وسيرته وتحديد العصر الذي عاش فيه ومدى علاقته بالأحداث التي تتناولها الملحمتان ومدى ما أسهم به في سبيل إخراجهما إلى حيّز الوجود، مهما اختلفت الآراء وتعددت فإن هناك حقيقة واحدة هي وجود درتين رائعتين تزداد قيمتهما على مدى الأجيال، وهما أجمل أثر في تاريخ الآداب العالمية.

إن هوميروس قد جمع الأخبار والقصص والأساطير عن العصور الماضية واستخلص منها صورة حية ضمنها – دون أن يشعر – تصورات عصره عن الآلهة والبشر، ولكنها تمثل لنا في الوقت نفسه الماضي البعيد، فهو يصف لنا حياة البشر في

[1] – د. عبد اللطيف أحمد علي: التاريخ اليوناني (العصر الهيلادي)، دار النهضة العربية، بيروت، الجزء الأول، ص 183-184

عصر البرونز رغم أنه كان يعيش في عصر الحديد. وهو يعرض علينا مشاهد الرقص في (كنوسوس) عاصمة كريت، رغم أن هذا القصر كان قد أصبح أطلالاً منذ مئات السنين. ولهذه الغاية استعان هوميروس بالقصص والأساطير والقصائد القديمة ونقلها كما هي بعد تحوير بسيط.

لقد أثبتت التنقيبات الأثرية أن مدينة طروادة المشار إليها في الإلياذة هي مدينة طروادة السابعة التي دُمرت عام 1200 ق.م على يد شعوب البحر.

وكما أثبتت الشواهد التاريخية والأثرية قيام مدينة طروادة، فقد أثبتت أيضاً قيام حرب طاحنة بين تلك المدينة وبين جيرانها من الشعوب الآسيوية والأوربية وأنه من السهل أن نحدد هجوم اليونانيين على طروادة في الفترة التي شاهدت تحركات أو هجرات الشعوب وهي حركة الهجرة الكبرى الثانية للشعوب الهندية – الأوربية التي تدفقت قبيل عام 1200 من حوض الدانوب الأوسط، واندفعت إلى الشرق والغرب والجنوب، وأحدثت اضطراباً شديداً في كل منطقة شرق البحر المتوسط، وبدلت الصورة الاتنولوجية للعالم القديم [1].

فقد هاجمت شعوب البحر مصر مرتين: في عام 1221 ق.م مرة، وفي عام 1990 ق.م مرة أخرى. وكذلك دمرت شعوب البحر مملكة اوغاريت في الفترة نفسها، أي مطلع القرن الثاني عشر ق.م.

وفي الواقع فإن حرب طروادة يمكن أن تكون واحدة من هذه الغارات، وإن كانت أوسع وأعنف من الغارات التي تستهدف مجرد الحصول على الغنائم وقطعان الماشية من المناطق المجاورة.

ومثل هذه الغارات أو الحرب التي شنها الآخيون أو اليونان من الممكن أن تدخل ضمن تحركات اليونان نحو الشرق في محاولة للتوسع والحصول على المعادن والحبوب والماشية من المناطق المكلة على شواطئ البحر الأسود.

وكان موقع طروادة الذي يتحكم في مداخل البحر الأسود، وفي الطريق البرية المؤدية إلى الشواطئ الجنوبية لهذا البحر، يشكل دون شك حجر عثرة أمام هذه التحركات [2].

---

[1] – المرجع السابق، ص 786.

[2] – مجلة عالم الفكر (العصور الكلاسيكية) الكويت 1981، المجلد 12، ص27– 28

موضوع الإلياذة:

تأخذ الإلياذة موضوعها من حوادث حرب طروادة التي يمكن تلخيصها فيما يلي:

((تروي الأساطير أن باريس Paris، وهو أجمل أولاد بريام priam ملك طروادة، زار مرة (مينلاووس) ملك إسبارطة. ثم خطف زوجته (هيلين) المشهورة بالجمال والفتنة. وقد غضب اليونانيون لهذا الاعتداء فجمعوا أسطولاً كبيراً مؤلفاً من 1200 سفينة وجيشاً ضخماً يبلغ مائة ألف مقاتل وساروا تحت قيادة (آجاممنون) ملك ميكني وأخي (مينيلاووس) وألقوا الحصار على طروادة، وقد اشترك في هذه الحملة أكثر ملوك اليونان وأمراؤهم وأبطالهم وبينهم (أوديسيوس) ملك جزيرة (إثاكة) و(أخيلليس) أشجع أبطال اليونانيين. كذلك ساعدت الشعوب الحليفة المجاورة لطروادة فأرسلت الجنود لنجدتها وتولى قيادة الجيش الطروادي البطل (هكتور) أحد أولاد الملك بريام استمر الحصار عشر سنوات ولم يتمكن اليونانيون من دخول المدينة إلا بعد أن لجؤوا إلى الحيلة فصنعوا تمثال حصان كبير من الخشب اختبأ في جوفه مائة محارب، ثم ركبوا السفن وتظاهروا برفع الحصار والعودة إلى بلادهم. فخرج أهل طروادة وجروا التمثال إلى داخل المدينة كغنيمة وذكرى لانتصارهم. وفي الليل أقاموا المآدب والأفراح احتفالاً بانتهاء الحصار.

وانتهز الجنود في جوف الحصان هذه الفرصة فخرجوا وفتحوا ثلمة في السور دخل منها اليونانيون الذين أحرقوا المدينة وقتلوا الرجال وسبوا النساء.

يصف هوميروس في الإلياذة هذه الحرب وما جرى خلالها من مبارزات بين الأبطال واختلافات بسبب النساء وأحاديث بين مختلف الشخصيات، كما يذكر انقسام الآلهة إلى حزبين انضم أحدهما إلى اليونانيين والآخر إلى الطرواديين، ثم إشتراك هذه الآلهة في القتال وحبك الدسائس والمؤامرات.

وأهم موضوع في الإلياذة هو غضب (أخيلليس) بسبب استيلاء الملك (آجاممنون) على جاريته الجميلة بريزس Priseis وقد انسحب (أخيلليس) مع جنوده من القتال وأقسم بأنه لن يمد يد المساعدة إلى اليونانيين، فإدى ذلك إلى رجحان كفة الطرواديين مدة من الزمن ولكن لما سمع بأن بطل طروادة (هيكتور) قد قتل صديقه الحميم (باتروكلوس) قرر العودة إلى القتال واستطاع أن يقتل (هيكتور) وهنا تنتهي

قصيدة الإلياذة. ويذكر لنا الكتَّاب اليونانيون بعد هوميروس أن (باريس) أخا (هيكتور) قد أصاب بعد ذلك (أخيلليس) بسهم فقتله[1].

موضوع الأوديسيا:

((غنِّ يا ربة الشعر عن الرجل الرحالة الذي هام يجوب في الآفاق بعد أن دمر مدينة طروادة المقدسة)) في هذين البيتين، كما في استهلال الإلياذة، يناجي الشاعر ربة الشعر لكي تلهمه الأغنية الملحمية التي يزمع إنشادها . وهو هنا كذلك كما فعل في استهلال الإلياذة يحدد موضوع ملحمته الذي لا يحيد عنه ولا يلف حوله في غير طائل، إنه تشرد أوديسيوس في الآفاق أثناء عودته من حرب طروادة. فرحلات أوديسيوس (الملاح التائه) إذن كغضبة (أخيلليوس) في الإلياذة هي بيت القصيد، وهي قلب الملحمة ولبها الذي يتجه إليه الشاعر مباشرة منذ اللحظة الأولى وبكل إمكانياته.و كما استمد هوميروس مادة الإلياذة من مصادر متعددة لا بد وأنها كانت معروفة لديه معرفة تامة فكذلك استمد أيضاً مادة الأوديسيا . ولكن طبيعة مصادره في إنشاء كلا الملحمتين تختلف عن الأخرى. ففي الآداب الشعية القديمة غالباً ما تتردد قصة رجل ذهب في رحلة طويلة بعيداً عن وطنه. وتطول غيبة الرجل عن بيته وأهله وأصدقائه، فيحسبونه قد لقي حتفه، ويخبوا الأمل في العثور عليه حياً أو ميتاً. ثم تمر الأعوام، ويعود الرجل الغائب فيجد زوجته قد وقعت فريسة في أيدي رجال آخرين.

إن أكثر من رجل أراد الزواج منها، لكنها ترفض الواحد تلو الآخر. وفي النهاية تُغلب المرأة على أمرها، وترضى بزواج واحد منهم، ويتحدد موعد الزواج. وغالباً ما يعود الزوج الغائب والزواج على وشكك أن يتم، فيطرد الطامعين، ويسترد زوجته وبيته وأمواله.

إن اسم تلك الزوجة – كما يرد في الأوديسيا – هو بينلوب penelop، وهو مركب من كلمتين: الأولى يعني أصلها ((نسيج)) والثانية ((يفك)). ويرى العلماء أن لفظ بينلوب ((المرأة التي تفك النسيج)) وأنه بذلك يشير إلى الزوجة التي كانت تغزل أثناء النهار وتفك ما تغزله أثناء الليل، حتى لا تنتهي من صنع هدية الزفاف التي

[1] – د . محمد كامل عياد، تاريخ اليونان، الجزء الأول، جامعة دمشق 1969، ص 78 – 79

بدونها لن يتم زواجها من أحد الطامعين فيها. وهذا العنصر الأول الذي يتكون منه موضوع الأوديسيا.

أما العنصر الثاني فهو قصص الملاحين الرحل، التي كانت معروفة حق المعرفة أثناء الألف الثانية قبل الميلاد لدى أهالي كريت، تلك الجزيرة التي كانت مقراً لدولة ذات قوة بحرية هائلة. وهناك أيضاً القصة المصرية التي أشرنا إليها سابقاً (قصة الملاح الذي نجا من الغرق) التي من الممكن الربط بين أحداثها المتعددة ووضعها في شكل مجموعة من الحلقات المترابطة وجعلها تدور حول شخصية معينة مثل السندباد البحري أو (أوديسيوس) ويبدو أيضاً أن أوديسيوس كان شخصية معروفة تقوم بمغامرات خيالية في البحر، وذلك منذ عصور ما قبل الهجرات التي كونت فيما بعد الشعوب الإغريقية. أما العنصر الثالث الذي يتكون منه موضوع الأوديسيا فهو قصة حرب طروادة فأوديسيوس قد اصبح في الأوديسيا واحداً من أبرز القادة الإغريق الذين اشتركوا في الحملة ضد طروادة. وبالرغم من ذلك، فإن شخصية أوديسيوس ما زالت تحتفظ بأغلب خصائصها القديمة، فهو دائماً (الرجل الذي يتحمل المتاعب) – ليس في الأوديسيا فقط بل وفي الإلياذة أيضاًو هو (الرجل واسع الحيلة) و(الداهية الأعظم).

أما العنصر الرابع فهو العلاقة بين البشر والآلهة. فالربة أثينا ساخطة على الطرواديين، لذلك فإنها تقف بجانب أوديسيوس، تحميه وتدافع عنه وترسم له خطط النجاة، وتصاحبه في تجواله، كما تصاحب أيضاً ولده ((تلماخوس)) أو ((تيلماك)) أثناء البحث عن والده. ولكن (بوسيدون) إله البحر، لا يرضى عن اوديسيوس، ويحاول القضاء عليه. أما رب الأرباب (زيوس) فإنه صاحب النفوذ والسلطان، قادر على كل شيء يبسط نفوذه على الآلهة والبشر على السواء.

وهكذا استطاع مؤلف الأوديسيا الاستفادة من مصادر متعددة في الحصول على مادة ملحمته. فالأوديسيا تتكون من أربعة عناصر: قصة العودة إلى الوطن، وقصة المغامرات في البحر، وقصة حرب طروادة، وفكرة العلاقة بين الآلهة والبشر[1].

تتجسد الفروق بين الملحمتين في أن الالياذة قصة حرب، بينما الأوديسيا تدور حول مفهوم البطولة. إن البطولة في الإلياذة تقوم على القوة الجسدية والقدرة

[1] – د. عبد المعطي الشعراوي: هوميروس شاعر الإلياذة والأوديسيا، المكتبة الثقافية، العدد 265، الهيئة المصرية العامة، 1971، ص 27 – 30

العسكرية، بينما البطولة في الأدويسيا تستند في الاغلب إلى الذكاء والمقدرة الذهنية وحسن التصرف.

ورغم تواجد الآلهة في الملحمتين، إلا أنهما ليستا ملحمتين دينيتين. فعظمة هوميروس تكمن في أن شعره هو تجربة إنسانية لا إلهية. ذلك أن هدف هوميروس الرئيسي هو التغني بأمجاد الرجال (الأبطال)

هذا مع أنه دأب على القول بأنه ما كان ينبغي له أن يتغنى بهذه الأمجاد نفسها لو لم توحي إليه (ربات الفن) بذلك.[1]

هيسيود:

كان اليونان يمجدون بين شعرائهم في المقام الثاني بعد هوميروس الحكيم هيسيودوس Hesiodos الذي يقول القدماء أنه ولد سنة 848 ومات سنة 777 ق.م ويروي بعض المؤرخين اليونانيون أن هيسيود كان معاصر لهوميروس وأنه قد اجتمع به وقرأ عليه شعره فنال إعجابه.

اشتغل هيسيود بالزراعة والرعي وبينما كان يرعى قطعانه على جبل مدينته نفثت ربات الشعر في جسمه روح الشعر فكتبه وغناه وكسب الجوائز في المباريات الموسيقية. كتب قصيدة: أنساب الآلهة TheTheogony [2] وهي تتناول المشاكل الحياتية والأفكار العملية كحقائق موضوعية أخلاقية واجتماعية وتفسرهما تفسيرا أسطوريا لاهوتيا كموضوع الشر والمرأة والتاريخ الإنساني وقد كتبت بالغة اليونانية بأسلوب علمي وهي سرد لقصة آلهة الأوليمب وظهورها وأنسابها ونشأتها وأعمال كل منها بحيث تشكل مرجعاً في عقائد اليونان وآلهتهم وتقع في 1022 بيتاً، ويعتقد أن تحريفاً كبيراً قد داخلها، وقد رتبت الآلهة على نسق منظم أقرب إلى المنطق، حيث يظهر عالم السماء خاضعاً لقانون التطور والارتقاء متجها نحو الكمال في تعاقب طبقاته. فتظهر كل طبقة من طبقات الآلهة أقرب إلى الكمال من سابقتها وهذه أول محاولة من نوعها على ما يقوله هيرودوت: ((إنّ هومر وهيسيود هما اللذان وضعا

---

[1] – د. علي عبد الواحد وافي: الأدب اليوناني القديم ودلالته على عقائد اليونان ونظامهم الاجتماعي، دار المعارف بمصر، 1960 ص 80 – 85 – 86.

[2] – الكلمة اليونانية هي: Theogonia مكتوبة من كلمتين Theos بمعنى إله، وgones بمعنى نسب أو نسل أو أصل.

أنساب آلهة الإغريق وأسمائهما ومنازلهما وأعمالهما وأوضحوا أنواعها وأقسامها)). والآلهة عنده هي الكون وأجزاؤه. يقول: كان في البدء عماء وبعدئذ كانت الأرض (جايا) وثمة أصل ثالث هو (أيروس) أي (الحب) أو قوة التوالد والإنتاج. ثم يصف عملية توالد الآلهة وتزاوجها وقصة الخلق.... الخ.

أما قصيدته: ((الأعمال والأيام)) فرغم ما قيل عن إضافات وتحريفات كثيرة دخلت عليها فإن أحداً لا يجادل في صحة نسبها إليه. وتقع في 828 بيتاً تتوزعها أربعة أقسام: الأول: مواعظه لأخيه الأصغر برسيس. والثاني: يتعلق بالزراعة والملاحة. والثالث: موضوعه الأخلاق والدين. والرابع: عبارة عن تقويم للأيام السعيدة والمشؤومة.

وفي مواكبة التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي طرأ على المجتمع الإغريقي تطور الشعر من الملحمي إلى التعليمي ثم إلى الشعر الغنائي وذلك لتزايد إحساس الفرد بذاته.